مقدمة

فانتازيا Fantasia

فى أوائل الأربعينيات، ذهبت إلى دار عرض ـ اختفت الآن ـ فى شارع عماد الدين. كانت هذه الدار تدعى «سينما ستوديو مصر». رأيت فى هذه الدار فيلماً لوالت ديزنى (Walt Disney) يدعى «فانتازيا». فى هذا الفيلم يعرض والت ديزنى تصوره البصرى عن إحساسه السمعى لعدة مقطوعات من روائع الموسيقى العالمية من أعمال باخ (توكاتا)، تشايكوفسكى (باليه كسارة البندق)، بيتهوفن (السيمفونية السادسة، الريفية)، موسورسكى (ليلة على جبل عار)، سترافينيسكى (احتفالات الربيع)، جونو (آفى ماريا)... إلخ. وكان من بين الأعمال قطعة موسيقية لدوكا Dukas يعكس فيها تصوره الموسيقى لقصة جميلة كتبها الأديب الألمانى جوته، يروى فيها حكاية صبى ساحر، ينتهز فرصة غياب سيدة ليحاول تقليده... وينتهى الأمر بكارثة :

كان الساحر قد كلف الصبى بنقل المياه من خارج المنزل إلى داخله. وبعد خروج الساحر، لبس الصبى «طرطوره» واتجه إلى مكنسة خشبية، وأمرها أن تتولى بدلاً عنه نقل المياه. بدأت المكنسة عملها ونام الصبى ثم استيقظ فإذا المنزل غارق فى المياه. حاول الصبى إيقاف المقشة فلم يفلح، جاء ببلطة وحطم المقشة إلى أجزاء صغيرة، ولكن تحول كل جزء من هذه الأجزاء إلى ناقل للمياه... إلى أن جاء الساحر وعالج الأمور.

شاهدت هذا الفيلم الرائع بعد ذلك عشرات المرات، ولكن ليس هذا موضوع حديثنا الآن.

* * *

ديودنى

يتخذ ديودنى (A.K Dewdney) من قصة «الصبى الساحر» لحناً أساسيًّا لكتابه الذى نستعرضه هنا، ويكرر هذا اللحن فى كل فصل من فصوله. والكتاب عرض جميل لأسباب وقوع بعض أنصاف العلماء فى براثن العلم الردئ، سواء كانت هذه الأسباب ناتجة عن خطأ فى طريقة البحث، أو مبالغة فى تصور مغزى النتائج، أو غير ذلك من أنواع إهمال مناهج البحث العلمى الصحيح.

والكاتب (ديودنى) أستاذ مشارك فى الرياضيات فى جامعة أونتاريو الغربية (University of Western Ontario) بكندا. وإلى جانب عمله لفترة طويلة ككاتب منتظم فى مجلة ساينتيفيك أمريكان (Scientific American) الواسعة النفوذ، فإنه ألف عديداً من الكتب لعل أهمها :

- A Mathematical Mystery Tour : Discovering the Truth and Beauty of the Cosmos.
- 200 Percent of Nothing : An Eye- Opening Tour Through the Twists and Turns of Math Abuse and Innumeracy.

* * *

فى تعاملنا مع العلم ينبغى علينا التفريق بين أنواع عديدة من الخداع : هناك طبعاً الخرافة وأمرها مفهوم ومفضوح وواضح، هناك أيضاً العلوم الكاذبة (Pseudosciences) وهى العلوم التى تواجه العلوم الحقيقية : فالتنجيم يواجه علم الفلك والباراسيكولوجى يواجه علم النفس والعلاج بالماء الساخن والأشكال الهندسية يواجه علم العقاقير والكلام عن تنينات تزفر النيران، ووحوش برأسين يواجه علم الأحياء، هناك أيضاً تزوير النتائج وتأليف النتائج الكاذبة مما يدخل فى باب الغش.

ولكن كتاب ديودنى هذا يناقش نوعاً آخر من الأخطار على العلم فهو يناقش «صبى الساحر» الذى يدعى العلم، والذى يحاول أن يقلد العلماء الحقيقيين، فيصل إلى نتائج يؤمن بها ويشغل بها الرأى العام حتى يتضح فسادها.

* * *

بعد مقدمة جميلة ـ أعتبرها من أجمل فصول الكتاب ـ يقدم ديودنى أمثلة من هؤلاء «الصبية» ويقص بالتفصيل قصصهم ويتخذ منهم نماذج، ويوضح موقع الخلل فى اكتشافاتهم الخاطئة. وهو بهذا يقدم أمثلة ممتعة للأخطاء الشائعة التى يرتكبها هؤلاء الصبية.

وعنوان الكتاب الأصلى هو «نعم ـ ليس لدينا نيوترونات»، وهى عبارة تتعلق بفضيحة حدثت منذ وقت قريب ـ وسنفصلها فيما بعد ـ ترتبط بمحاولة ساذجة لتوليد الطاقة الاندماجية. ولكنى فضلت أن أطلق عليه اسم «صبى الساحر» أو «نماذج من العلم الردئ».

استأذن القارئ فى عرض بعض فصول هذا الكتاب الممتع.

سمير حنا صادق